آثار شرق الجزيرة العربية ودورها في نشأة حضارة سومر

د/ عبد الله حسن مصـــرى
مدير ادارة الاثار بوزارة المعارف

من المعروف في علم الحضارات القديمة أن حضـارة سـومر التى نشـأت وازدهرت في جنوب بلد ما بين الرافدين (جنوب العراق حاليا) منذ حوالى ٥٠٠٠ سنه سابقه كانت بمثابة اللبنـة الأولى التى ارتكز عليها صرح الحضارة الانسانية بمفهومها الحقيقى ، ذلك المفهوم الذى يقتضى توفر العناصر الرئيسية التالية لتعريف الحضارة :

١ ـ تطوير واستعمال الكتابه ٠
٢ ـ تكوين وتطور نظام الدولة والقضاء ٠
٣ ـ تطوير العمارة الخالده ٠
٤ ـ وجود المدنية بتركيبها المعقد ٠
٥ ـ تطوير الفنون الابداعية من رسم ونحت وتكوين الخ ٠٠

ولا غرو في القول بان حضارة سومر قد تكاملت فيها تلك العناصر بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ الانسان القديم ٠

ومن المعروف ايضا ان حضارة سومر قد استمدت قواعدها الأساسية من رواسب الثقافات الانسانية السابقة لها زمنا في اطار المنطقة الجغرافيه المذكورة أعلاه والتى اطلق عليها اسم « سومر » وكذلك في المناطق المحيطة بها شرقا وشمالا وجنوبا • والاكثر من ذلك ان علم الآثار قد توصل الى تحديد العنصر الثقافي الرئيسى الذى استقت منه حضارة سومر مواردها الاساسية • وذلك العنصر هو ما سمي بثقافة عصر العبيد (بضم العين) ـ نسبة الى الموقع الاثرى الذى اكتشفت عليه آثار هذا العصر لاول مرة ، ويقع غربي مدينة الناصريه بالعراق • ويرجع تاريخ هذا العصر الى حوالى ٧٠٠٠ سنة سابقة • واهم ما يميز هذا العصر هو الفخار الملون ذو الزخارف الهندسية المعروف بفخار العبيد •

ولقد اجتمع راى علماء الآثار على ان ثقافة العبيد قد اثرت تاثيرا مباشرا على مقومات حضارة سومر ، حيث ان فترة العبيد قد امتدت زمنا من ٧٠٠٠ الى حوالى ٥٥٠٠ سنه سابقه ، ثم تلتها الثقافه المعروفة بالورقاء التى تعتبر قاعدة الحضارة السومرية •

ولكن علماء الآثار حتى وقت قريب لم يتوصلوا الى معرفة اصل ومكان نشاة ثقافة العبيد، فقد اختلف الراى حول ذلك حيث نسبها بعض العلماء الى اصل في شرق بلاد ما بين الرافدين (ايران حاليا) وتمسك فريق آخر بنسبتها الى المنطقة الشماليه (بلاد الآشوريين فيما بعد) • والغريب في الامر انه ما من عالم او دارس لاصول الحضارات كان قد شك في أن يكون الجنوب (شرق جزيرة العرب) مصدرا لثقافة العبيد • وقد لايبدو ذلك بالغريب عند الكثير من علماء الغرب حيث ان التفكير التاريخي قد داب منذ زمن طويل على اعتبار ان الجزيرة العربية لم تكن لتستقطب مراكز ثقافيه وحضارية كبيرة نظرا لانعدام المقومات الطبيعية لتلك الظواهر فيها• وهذا الراى قد ثبت بطلانه مؤخرا نتيجة للدراسات العلمية التى اكدت بان مناخ الجزيرة العربية قد دخلت عليه تغيرات

كبيرة منذ انحسار العصر الجليدى ـ الاخير ـ اى قبل عشرة آلاف سنه سابقة . وبالطبيعي أصبح من المحتمل بل من المؤكد تصور مقومات طبيعية عكس ما هو عليه الحال في الوقت الحاضر أو قبل الفي سنة سابقة .

والاكثر اهمية من كل ذلك أن الاكتشافات العلمية التي قام بها الكاتب في المنطقة الشرقية من المملكة في عام ١٣٩٢ هـ (انظر التفاصيل) قد أثبتت بدون ادنى شك وجود عناصر كثيفة من ثقافة عصر العبيد وفي اماكن متفرقة من المنطقة جنوبا وشمالا . بالاضافة ، فقد أثبت البحث ان ثقافة العبيد لم تكن دخيله على المنطقة بل انها نشات من جراء تطور طبيعي سبقته مراحل عديدة خلال العصر الحجرى الحديث الذى لم يكتشف استعمال الفخار فيه بعد . وفيما يلى نستعرض النقاط الرئيسية لأسباب ونتائج وابعاد هذه الاكتشافات :

أسباب البحث :

خلال العشر سنوات الاخيرة استقطبت الجزيرة العربية ـ خصوصا الجزء الشرقي منها ، بما في ذلك ساحل الخليج العربى ـ استقطبت انظار علماء الآثار عامة نتيجة للأبحاث التي قامت بها بعثة علمية دانمركية في أجزاء مختلفة من عمان وابو ظبى وقطر والبحرين والكويت . وأهم ما لفت انظار المجتمع العلمى هو الكشف عن عاصمة البحرين القديمه ـ التى كانت تعرف سابقا بمركز حضارة «ديملون» . وجاء ذكر ديملون هذه في نصوص الكتابه السومريه منذ ٤٥٠٠ سنه سابقة تقريبا ، واشتهر ذكرها في مجال التجارة الدولية التي قامت حينذاك وبعده بين مراكز الحضارة في سومر وبلاد نهر السند في باكستان الحاليه . وكان الخليج العربى اقدم بحر داخلى لعب دورا هاما في الاتصالات التجارية بين الحضارات القديمة . لذلك فعندما برزت نتائج التنقيبات عن ديملون في جزيرة البحرين تاكدت مجددا «تلك الأهمية » البارزه التى أولتها كتابات السومريين القدماء لهذه المنطقه .

فقد اكتشف العلماء الدانمركيون آثار مدينة واسعه بها من العمـــاره والبناء العظيم ما لم يكن يتحقق الا في اطار حضارة راسخه • لذا فقـد كان من البديهي أن ينظر أهل العلم في الآثار مجددا في احتمال وجود آثار حضاريه أعظم واقدم زمنا على أرض الجزيرة العربية نفسها • أضـف الى ذلك ما أشرنا اليه أعلاه من الاكتشافات الحديثة العهد عن تطـور المناخ والتغيرات السطحيه على الأرض التى تلت انحسار العصر الجليدى الأخـــير •

كل هذه الاســباب كانت دافعا قويا للبحث في شرق المملكة عن آثار سابقه لعصر ديملون وربما فيما يتصل بالثقافات القديمه التي سـبقت سومر ـ اى مثل ثقافة العبيد • ومما أضاف الى دوافع البحث اكتشاف قطع فخاريه على سطوح بعض المواقع في واحتى الاحساء والقطيف وذلك من قبل افراد لم يعرفوا كنهها وأهميتها ، وعندما وقعت بين يدي المختصين تبين أن هذه القطع هي في الحقيقة نموذج أصيل للفخار المعروف بفخار العبيد الذى ترجع قيمته التاريخيه الى حوالى ٧٠٠٠ سنه ســابقه كما ذكرنا أعلاه (انظر الصــورة) •

وبناء على ماسبق ، فقد قام الكاتب باجــراء بحث ميداني تضمن مسح كافة أرجاء المنطقة الشرقيه من المملكة بحثا عن مواقع قديمة تعود الى ما قبل تاريخ نشوء الحضارات ، ثم القيـــام ببعض التنقيبــات الاستكشافية لمعرفة الرواسب الاثرية فيها •

وقد حقق البحث نجاحا كبيرا حيث تم اكتشاف حوالى ٤٠ موقعـــا برزت فيها آثار كثيفة تعود الى أكثر من سبعة آلاف سنه سابقه وتتخللها نماذج عديدة من ثقافة العبيد • وتنتشر تلك المواقع من واحة يبرين في أقصى جنوب المنطقة الشرقيه الى أقصى الشمال على ساحل الخليـج دون حدود الكويت (انظـر الخريطـــه) •

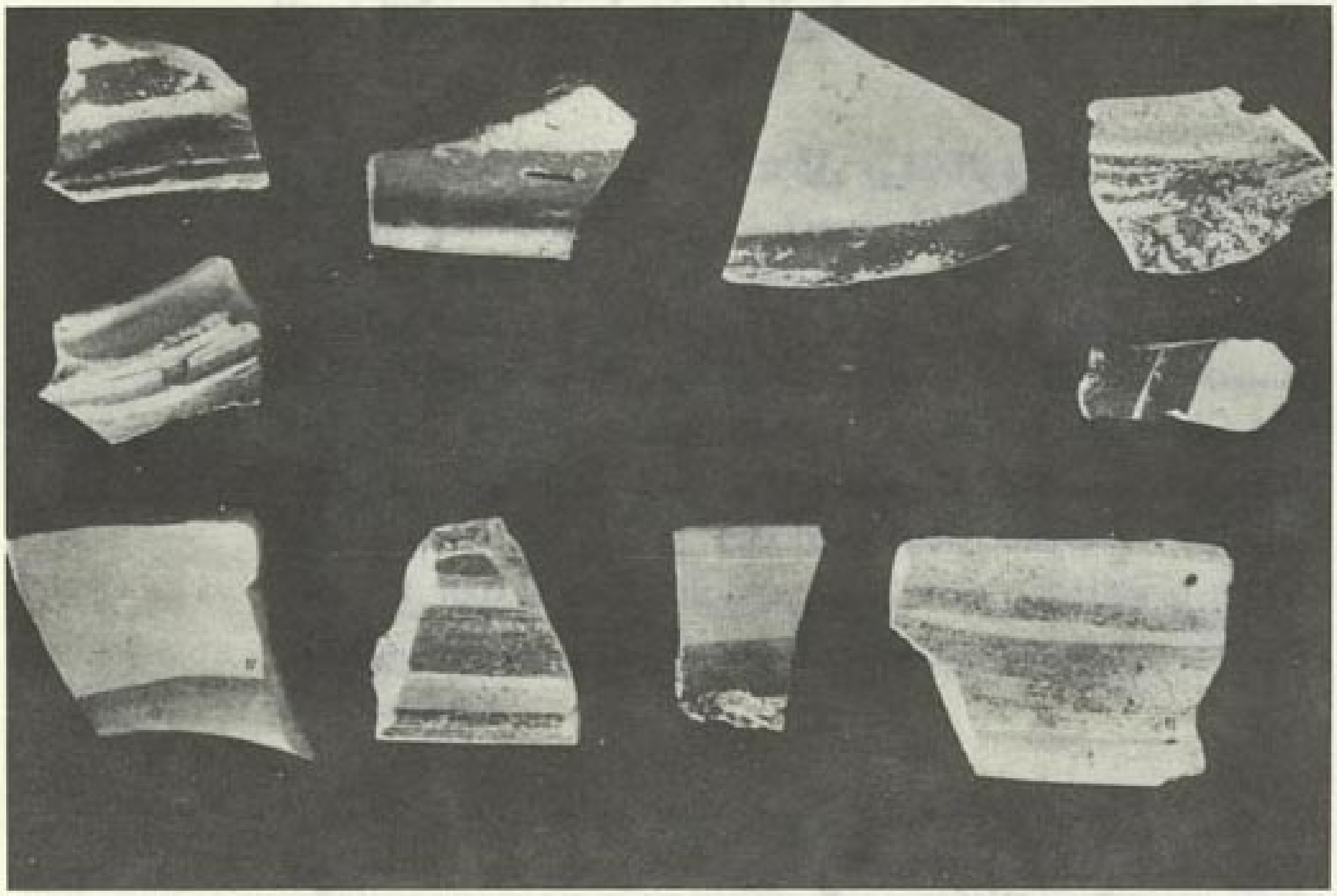

● نماذج لقطع فخارية من عصر العبيد

أهـــم نتائج الكشـــف :

١ ـ تم الوقوف على عدد كبير من مواقع الآثار التي تعود الى العصر الحجري الاعلى وذلك في المنطقة المحيطة بواحة يبرين (٣٠٠ كم جنوب غرب الهفوف) ٠ وتتصف هذه المواقع بكونها مستوطنات سطحية عاصرت حياة أقوام كانت معيشتهم تعتمد على الصيد وجمع النباتات البريه٠ وأهم تلك المواقع : موقع جبل درعه ، وموقع الضبطية ٠ وبالنسبة

للزمن التقريبي لتاريخ هذه المواقع فهو من حوالى ٢٠٫٠٠٠ سنه سابقه وحتى ١٠٫٠٠٠ سنه سابقه ٠

٢ ـ في واحات الاحساء نفسها تم اكتشاف موقع أثرى هام بالقرب من قرية المراح ـ شمال الهفوف ـ ويسمي هذا الموقع بعين قناص ٠ اهمية هذا الموقع تكمن في انه جمع بين آثار تعود الى العصر الحجرى ـ المذكور أعلاه ـ بالاضافه الى آثار منعصر العبيد المعروف بالفخار الملون ـ انظر الصورة ـ وتاكد عند التنقيب ان آثار عصر العبيد قد تراكمت فوق آثار العصر الحجرى ، ويبلغ عمق التراكمات هذه أكثر من خمسة امتار تصل الى قاع عميق كانفيما مضى يمثل فتحة لعين من الماء ـ كما يدل على ذلك الاسم الحالى للموقع ٠ وباجراء التحاليل العلمية لتحديد الزمنعن طريق الكاربون المشع على البقايا العضوية من الموقع تبين أن عمر الموقع يصل الى حوالي ٩٠٠٠ سنة سابقه ٠

٣ ـ اكتشاف موقعين كبيرين يعود زمنهما لفترة العبيد بصفة رئيسية ٠ يقع أحدهما جنوب مدينة الجبيل على الساحل (موقع الدوسرية) والآخر يقع حوالى ٦٠ كم الى الشمال ، ايضا على الساحل (موقع أبو خميس) ٠ وبتحديد أزمان هذين الموقعين بالطريقة العلمية المشار اليها أعلاه تبين أن موقع الدوسريه اقدم زمنا ببضع قرون من موقع ابو خميس ، حيث ان الأول يعود الى الفترة بين ٤٩٠٠ ـ ٤٣٠٠ سنه سابقه في حين أن الثانى امتد السكن فيه بين حوالى ٤١٠٠ ـ ٣٨٠٠ سنة سابقة ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفترات الزمنية تمثل ما هو معروف بالعصر الثاني والثالث من ثقافة العبيد في بلاد مابين الرافدين٠ وان الاختلاف الزمنى والجغرافى بين هذين الموقعين اذا ما قيس بموقع عين قناص في الاحساء ليوحى بأن هناك امتدادا زمنيا وجغرافيا لوجود ثقافة العبيد في شرق الجزيرة العربية ومما يؤكد أن الثقافه ذاتها من المحتمل ان تكون قد نشأت هناك ثم انتشرت الى بلاد ما بين الرافدين ٠

٤ ـ في جزيرة تاروت التي تلى ساحل مدينة القطيف ـ وعلى التل الذى يتوسط مدينة تاروت نفسها تماكتشاف آثار قديمة تعود الىالفترات التي تلت عصر العبيد ـ وهي التي يطلق عليها عصر جمدت نصر وعصور فجر السلالات القديمة وتمتد زمنا من حوالى ٥٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ سنة سابقة ، وهذه الآثار تشكل وحدة مترابطة تماما مع الآثار التي وجدت بالعراق والتي تعود الى عصر الحضارة السومرية ومن هذه الآثار تمثال ضخم متقن الصنع وجد في أسفل التل المشار اليه أعلاه ويمثل طرازا سومريا بحتا ، غير ذلك هناك آثار الاواني وادوات المصنوعه من الحجر الصابونى الأخضر اللون والمعروف بسهولة تكوين الادوات منه ، وقد اشتهر هذا النوع من الحجر ابان العصر السومرى حيث كانت تنقش عليه رسوم هندسية وطبيعية بديعة وانتشر استعماله في كافة أرجاء الشرق الأوسط القديم ٠

أبعاد نتائج البحث :

جميع هذه الدلائل التي ظهرت نتيجة للبحث والاكتشافات المنوه عنها أعلاه تشير الى حقيقة واضحة وهى أن شرق الجزيرة العربية قد ساهم مساهمة فعاله أولا في تكوين اللبنات الأساسية لثقافة العبيد ، وثانيا في نشاة وازدهار حضارة سومر في بلاد ما بين الرافدين ، تلك الحضارة التي تعتبر بحق رائدة الحضارة الانسانية بمفهومها الاساسي ٠ وان ما تم اكتشافه حتى الآن عن الدور الذى لعبه شرق الجزيرة ليعتبر نقطة بداية فقط لما سيتلو من ابحاث واكتشافات كثيرة التي ستجلى باذن الله غبار النسيان وعدم الاهتمام اللذين اكتنفا موضوع التاريخ القديم لجزيرة العرب عامة ٠

د٠ عبد الله حسن مصرى

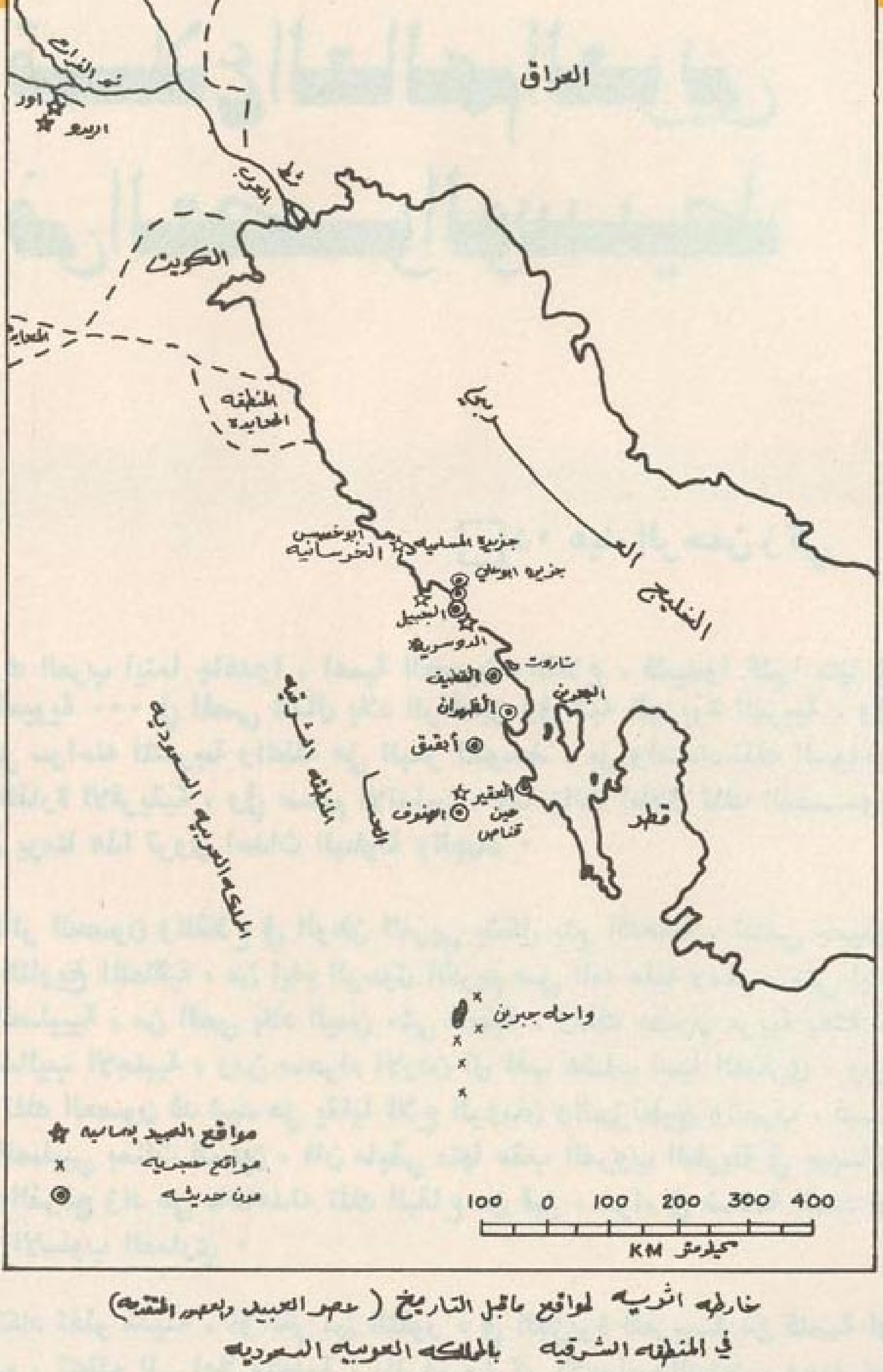

خارطه اثريه لمواقع ماقبل التاريخ (عصر العبيد والعصور المتقدمه)
في المنطقه الشرقيه بالمملكه العربيه السعوديه